المجلة التاريخية الجزائرية
ISSN: 2572-0023 / EISSN: 2716-9065
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/664
المجلد:07، العدد:01 (2023)، ص466 -477

قضية تعليم المرأة الجزائرية في فكر الشيخ محمد البشير الإبراهيمي

The issue of Algerian women's education in the thought of Sheikh Muhammad al-Bashir al-Ibrahimi

آمال معوشي
جامعة المسيلة (الجزائر)
amel.maouchi@univ-msila.dz

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
2023/02/20
تاريخ القبول:
2023/03/24

الكلمات المفتاحية:
- ✓ التعليم
- ✓ البشير الإبراهيمي
- ✓ المرأة الجزائرية
- ✓ الحركة الإصلاحية

الملخص:

تعتبر قضية تعليم المرأة من القضايا المهمة التي طرحها رجال الإصلاح في الجزائر، وعلى رأسهم الشيخ البشير الإبراهيمي الذي كان من أهم المدافعين عن حق المرأة في التعليم، معتبرا أن تقدم المجتمعات مرهون بتعليمها وإبعادها عن خطر الجهل، وهذا ما نسعى إلى توضيحه في هذه المساهمة من خلال الإجابة عن الإشكالية التالية: **كيف نظر الشيخ لمسألة تعليم المرأة الجزائرية؟ وما هي جهوده في الموضوع؟** وقد استنتجنا أن الإبراهيمي بذل جهدا كبيرا لتعليم المرأة، وربطها بهويتها وثقافتها الإسلامية، ووقف في وجه الأفكار السلبية التي حرمت المرأة من التعليم، وكانت هذه المسألة من أكبر انشغالاته وأهمها.

Article info

Received:
20/02/2023
Accepted:
24/03/2023

Key words:
- ✓ education
- ✓ Bachir El-Ibrahimi
- ✓ Algerian women
- ✓ reform movement

Abstract:

The issue of women's education is considered one of the important issues raised by reformers in Algeria, headed by Sheikh Al-Bashir Al-Ibrahimi, who was one of the most important defenders of women's right to education, considering that the progress of societies depends on educating them and keeping them away from the danger of ignorance, This is what we seek to clarify in this contribution by answering the following problematic: How did the sheikh view the issue of Algerian women's education?
We have concluded that Ibrahimi made a great effort to educate women, and link them to their identity and Islamic culture, He stood up to the negative ideas that deprived women of education, and this issue was one of his biggest and most important concerns.

مقدمة

اهتم الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بقضايا المرأة الجزائرية، وبذل جهدا لإصلاح حياتها وتخليصها من العادات الراكدة التي سيطرت عليها، ومن حالة الجهل والتخلف التي أحاطت بها من كل مكان، ومن بين أهم قضايا المرأة التي أخذت حيزا واسعا عند الإبراهيمي قضية التعليم، فلم تقتصر جهود الشيخ في هذا الجانب على نشر الوعي والإرشاد فقط، بل سعى جاهدا في مسألة تعليمها، وشرع في تنفيذ برنامجه التعليمي رفقة عدد من رجال الإصلاح والدعوة، من خلال فتح أبواب مدارس التعليم العربي أمامها، وفق منهج سليم قائم على الحفاظ على هويتها الإسلامية وانتمائها الحضاري، وسنحاول من خلال هذه الدراسة أن نبين **كيف نظر الإبراهيمي لمسألة تعليم المرأة الجزائرية؟ وما هو المجهود الذي بذله في هذا الجانب؟** من خلال المرور بعدة نقاط أساسية، النقطة الأولى تتضمن الإشارة بصورة عامة إلى وضع المرأة الجزائرية مطلع القرن العشرين، وكيف كانت ضحية للجهل والظروف الاجتماعية المزرية، ولسياسة الاستعمار الفرنسي الذي حاول استغلالها للنّيل من المجتمع الجزائري، لعلمه بالمكانة التي تحتلها المرأة والدور الحساس لها في تقدم أو تأخر المجتمعات، ثم سنحاول أن نقف على نظرة جمعية العلماء للمرأة وموقفها من قضية تعليمها، باعتبار أن الإبراهيمي أحد رجال الجمعية بل هو قطب من أقطابها، وأحد أهم علمائها، ثم سنسلط الضوء على رؤية الشيخ لتعليم المرأة، والمنهج المناسب في ذلك، والمجهود الذي بذله في سبيل إبعادها عن خطر الجهل، خاصة أنه انطلق من بيئة صعبة، ومجتمع ذكوري كان زاهدا في تعليم المرأة ومنحها حقوقها الشرعية، لقلة وعيه والجهل الحاصل في تفكيره، وتجدر الإشارة هنا أن موقف الشيخ يعد جزءا من موقف الجمعية عموما.

1. مكانة المرأة الجزائرية في المجتمع قبل ظهور الحركة الإصلاحية

عانت المرأة الجزائرية خلال فترة الاحتلال الفرنسي من الكثير من العادات والممارسات السلبية، التي عطلت مسيرتها وأقصتها من المشاركة في الحياة الثقافية والسياسية في البلاد، فكانت فريسة للجهل والفقر وبعض العادات والتقاليد البعيدة عن الإسلام، فكان وضعها مزريا بداية القرن العشرين وجعل البيت بمثابة السجن الذي لا تغادره في بيت أبيها ثم في بيت زوجها، وفرض عليها حصار اجتماعي كبير لدرجة أن أعتبر ذكر اسمها في مجمع ما بمثابة قلة أدب، فكان بعض الرجال عندما يذكرون كلمة المرأة أو الزوجة، يقولون لمن يخاطبونهم "**أكرمكم الله**" أو "**حاشاكم**"، وكان كل برنامج المرأة هو إعداد الطعام والعمل التقليدي والقيام بشؤون البيت، والعمل بالصوف والغزل والنسيج، وإن كانت في الريف فهي تساهم في أعمال الزراعة، ولم يكن لها رأي في أمور تخصها كالزواج ولا حق لها في التعليم، وكثيرا ما عانت من آثار الطلاق وتعدد الزوجات (قرة، 2018، ص 186)، وبعض الممارسات التي لا يراعي فيها الرجل أحكام الدين الإسلامي كظلمها بالضرب، وعدم حصولها على حقها في العلاج والتعليم وغيرها من الحقوق، ورغم أن البيت والاعتناء بالأسرة والأولاد هو واجب طبيعي للمرأة وحق مقدس لها، لكن ما نعيبه على هذه الفترة هو حياة الإهمال والجهل والبؤس التي كانت المرأة الجزائرية غارقة فيها، وظلم المجتمع لها بحرمانها من بعض الحقوق من باب التعسف والظلم، وربما خير مثال هو حرمانها من

الميراث الذي مازالت بعض العائلات تمارسه لغاية يومنا هذا.

ووقعت المرأة الجزائرية فريسة للطرق الصوفية المنحرفة ولممارسات الشعوذة، فكانت من أكثر أفراد المجتمع اعتقادا وتشجيعا للشيوخ والزيارات، وهذا راجع لطبيعتها البسيطة، ولقلة علمها وجهلها بأصول الدين وأحكامه، ولنشأتها على الإيمان بالخرافات والأباطيل، وهكذا أصبحت المرأة الجزائرية أداة سهلة وفريسة لهؤلاء المشعوذين، فوقعت في الكثير من المنكرات خلال تلك الزيارات التي كانت تقوم بها للأضرحة والمرابطين، والطواف حول القبور والعكوف عند القباب للأولياء والشكوى لهم والاستعانة بهم، وأحيانا زرن حتى الكنائس مثل كنيسة "**سيدتنا الإفريقية**" ونذرن لها وطلبن بركة مريم العذراء، وكم من سلوك منحرف مارسته المرأة في حضرة الشيخ عند زيارته، من التزين والتبرج والاختلاط بالرجال، وقد وصلت الأمور أحيانا إلى ما لا يحمد عقباه من هتك الأعراض، وكل هذا كان باعثا على التعجب، فالمجتمع الجزائري أصبح يتخبط في عالم متناقض، فتلك المرأة الممنوعة من الخروج المحجوبة عن أعين الرجال والغرباء، تصبح مباحة لشيوخ الطرقية والمشعوذين، وتقع فريسة للاختلاط والكثير من المحظورات، وظلت قوة الطرقين مسيطرة على المرأة والمجتمع الجزائري حتى غداة الحرب العالمية الأولى، ولم تتراجع إلا بعد ظهور الحركة الإصلاحية التي شنت حربا على كل أنواع الشعوذة والانحراف (عجناك، 2011، ص 41-44)، وعلمت الناس أصول دينهم ودنياهم.

كما انتهج الاستعمار سياسة هدف من ورائها ضرب الهوية الإسلامية، فركزت الكثير من الكتابات الفرنسية على المرأة الجزائرية المسلمة وعلى حالتها، وربطت كل ذلك بالإسلام للطعن فيه، واجتمعت هذه الكتابات على أن المرأة الجزائرية واقعة فريسة للرجل وغارقة في الخرافات والجهل، وهي ضحية التخلف والأمية، وهي لعبة الرجل الذي اشتراها بأمواله، وهي ضحية لدينها الذي جعل القوامة للرجل عليها، وأباح تعدد الزوجات وجعل الطلاق بيد الرجل وحده وفرض عليها الحجاب، والمرأة الجزائرية عند الفرنسيين وفي كتاباتهم نمط واحد في المدينة والريف، فهي آلة للعمل والإنجاب، ولا أفراح ولا مراقص ولا ملتقيات اجتماعية في حياتها، فالمجتمع الجزائري مجتمع رجولي وليس فيه دور للنساء، ومن هذا المنطلق جاءت محاولات الأوروبيين لإنقاذها فأرسلت النساء الأوروبيات لتحريرها واقتحام عالمها، من خلال القلم والمصنع والتنصير وفتح الورشات ومحاولة الإغراء... وغيرها من الطرق (سعد الله، 2011، ص 337-338).

ولقد وجهت إحدى المربيات الفرنسيات كتابا إلى وزير الحربية الفرنسية قائلة: "**إنكم سيدي الوزير لا تجهلون أن أكبر تأثير في إفريقيا هو تأثير المرأة، كما هو الحال في أوروبا، وإنكم إذا خصصتم لحضارتنا 100 ألف من الفتيات الجزائريات اللاتي ينتمين لمختلف طبقات المجتمع، سيصبحن في المستقبل بحكم الأشياء زوجات بارعات ومحظوظات، وسيضمن لكم خضوع البلد إلى الأبد...وذلك بالتأثير على أزواجهن**" (أبيش، 2017، ص 128). وكتب فرنسي آخر: "**أنه إذا أراد الفرنسيون ضرب المجتمع في صميم بنيته وفي قدرته على المقاومة، يجب عليهم قبل كل شيء كسب النساء، والسعي للبحث عنهن خلف الحجاب حيث يتوارين، وفي المنازل حيث يخفيهن الرجال**" (أبيش، 2017، ص 128). وركزت الكاتبة ماري بوجيجا على

تعليم المرأة تعليما يجعلها تتقبل الحضارة الفرنسية، وذكرت كاتبة أخرى بأنه عندما نلحق ولدا بالمدرسة الفرنسية فإننا نربح فردا، بينما نكسب إذا ألحقنا بها بنتا بعدد من تنجبهم، وهذا ما جعل الإدارة الفرنسية تفتح أبواب المدارس الفرنسية أمام الفتيات الجزائريات، ليتقبلن الثقافة الفرنسية ويقنعن بها عائلاتهن، وهذا يضمن لفرنسا الهدوء والاستقرار في الجزائر (أبيش، 2017، ص 128).

وازداد شقاء المرأة الجزائرية حين اضطرت للخروج إلى العمل خاصة في المدن الكبيرة، مع بداية القرن العشرين، نظرا للوضعية الاجتماعية والاقتصادية الصعبة التي فرضها الاستعمار الفرنسي على العائلات الجزائرية، فرغم التقاليد المحافظة اضطرت للعمل للمساهمة في الإنفاق على عائلتها، ومن بين المهن التي عملت فيها: تنظيف بيوت العائلات الأوروبية من الطبقة المتوسطة، لأن العائلات البرجوازية داخل مدينة الجزائر كانت تفضل تشغيل عاملات من أصول إسبانية ويهودية، وإلى جانب تنظيف البيوت مسحت العمارات، وباعت بعض الحشائش في السوق ورقعت الملابس، وعملت في معامل الكبريت والزرابي وكي الملابس، وعملت بعض الأشغال اليدوية، كالطرز على الكتان، والمخمل، والأحزمة الحريرية، والجلد، والخياطة والحياكة وأعمال أخرى كثيرة مرتبطة بالمعامل، ولكن جزء من عملها ينجز في البيوت، وفي حالات استثنائية وتحت تشجيع الاستعمار الفرنسي مارست بعض النشاطات المحظورة والمرفوضة من الناحية الشرعية (ميدان، 2007-2008، ص 76-77).

فأصبحت المرأة الجزائرية واقعة تحت تأثير الكثير من العادات الراكدة الموروثة والتي لا تمت للإسلام بصلة، كما هبت رياح العادات الوافدة بفعل سياسة الاستعمار والتعليم الفرنسي، الذي حاول استغلالها لضرب الدين الإسلامي والهوية الجزائرية، وضمان بقاء الجزائر فرنسية، وزاد شقاؤها خاصة في المدن بفعل الظروف الاقتصادية التي فرضت عليها واقعا جديدا أخرجها للعمل من أجل تحصيل قوتها وقوت عيالها.

2. نظرة جمعية العلماء للمرأة وموقفها من قضية تعليمها

كان المجتمع الجزائري زاهدا في تعليم المرأة ولم يكن يسمح للنساء بالخروج للتعلم، ولم تأخذ المرأة نصيبها من التعليم ودخول المدرسة والثانوية والجامعة، بل لم تكن العائلات تسمح حتى بمناقشة مسألة تعليم البنات، وتعتبر ذلك من الكبائر (الإبراهيمي، آثار الإمام البشير الإبراهيمي، ج2، 1997، ص 21)، وكانت هذه مشكلة من بين المشكلات التي أرادت جمعية العلماء المسلمين معالجتها، لأن مشروعها الإصلاحي التربوي كان موجها لكل فئات المجتمع دون استثناء، ولم تغفل عن معاناة المرأة وظروفها الصعبة، وأكد علماء الإصلاح، أن أي حركة إصلاحية تحاول النهوض بالمجتمع وتغفل في مضامينها أحد الجنسين أو تركز على أحدهما دون الآخر لهي محاولة فاشلة، وقد أكد ابن باديس أن المجتمع لا ينهض إلا بالجنسين معا الرجل والمرأة مثل الطائر لا يطير إلا بجناحين (أبيش، 2017، ص 123-125)، وهذا واحد من المقومات التي قامت عليه الجمعية في نشاطها الإصلاحي، فكانت مسألة تعليم المرأة ضمن انشغالاتها الأساسية.

وتجدر الإشارة أنه رغم معالجة الصحف العربية التي ظهرت بالجزائر مطلع القرن العشرين لقضية المرأة، إلا أن بعض الباحثين اعتبروا أن طرح قضية المرأة الجزائرية وانشغالاتها قد تأخر مقارنة بمصر وتونس مثلا،

كما أن النخبة الجزائرية المثقفة ثقافة فرنسية ورغم أنها كانت سباقة لطرح قضية المرأة، إلا أنها قرنت تطورها وحريتها بتعليمها تعليما فرنسيا، كما انقسمت وجهة نظر دعاة الإصلاح في أسباب تدهور حياة المرأة الجزائرية، وطرق علاج الوضع، وهل يسمح لها الخروج والتعلم أو لا، وبرز اتجاهان أساسيان في الجزائر، اتجاه متشبث بالأصالة ودعاة المحافظة، واتجاه تبنى التحديث والتجديد بعدة طرق، وبذلك أقحم موضوع إصلاح أوضاع المرأة الجزائرية في حلبة الصراع بين المحافظين والتجديديين عامة، وسار النقاش أحيانا في طريق مسدود (بن علي، 2020، ص 307)، لكن ما يمكن أن نقوله أن جمعية العلماء سارت عموما على منهج معتدل في نظرتها للمرأة، لتشبع أفرادها بالشريعة الإسلامية، فحاولت تعزيز مكانتها وإصلاح حياتها وإبعادها عن الجهل والتخلف.

وتسربت للجزائر مطلع القرن العشرين، بعض الأفكار الخارجية المتأثرة بالفكر الغربي البعيد كل البعد عن المجتمعات المسلمة، ورغم أنها دعت إلى تعليم المرأة ومنحها مزيدا من الحقوق والواجبات، إلا أن ذلك كان مقترنا بتغيير مظهرها الخارجي، وتحريرها تحريرا يتنافى مع مبادئ الإسلام، وانفتاحها على مجتمع الرجال، ومساواتها بهم، ومنها الدعوة التي كان يقودها الزعيم العلماني كمال أتاتورك، وما كان يدعو إليه من تحرر النساء ومساواتهن بالرجال، وأيضا ما كان ينادي به قاسم أمين الملقب "**بمحرر المرأة**"، ويضاف إلى هاذين الكاتب التونسي الطاهر الحداد، الذي انتقد حالة الجهل التي تعيشها المرأة، كما انتقد أحكام الشريعة الإسلامية، ونظام تعدد الزوجات، وقانون الميراث الشرعي، وطالب بتغيير وضعية المرأة التقليدية ومنحها مزيدا من الحرية والتقدم (معوشي، 2021، ص 322-324)، وأصبحت بذلك الساحة الثقافية تعج بالأفكار حول المرأة من كل حدب وصوب.

واجتهدت جمعية العلماء المسلمين في معالجة الوضع، ومواجهة كل التحديات الداخلية والخارجية التي كانت تهدد حياة المرأة وكيانها في المجتمع الجزائري المسلم، ورأت أن التعليم هو أقوى سلاح لمقاومة العدو، وللمحافظة على الروح الجزائرية التي كانت مهددة بالابتلاع من قبل الثقافة والفكر الفرنسي، ورأت أن تنبه أولياء الأمور إلى أهمية تعليم البنات، ضمن الإطار الحضاري الإسلامي، لأن البنت المتعلمة تستطيع أن تبني أسرة منسجمة، وافتتح ابن باديس الذي يعتبر رائد الإصلاح، والقائد الأول للجمعية وأبرز علمائها، أول مدرسة جزائرية وهي "**مدرسة التربية والتعليم الإسلامية**"، دعا المسلمين إلى إرسال أبنائهم وبناتهم قائلا: "...**فندعو إخواننا المسلمين إلى المبادرة بأبنائهم وبناتهم إلى المكتب، فأما البنون فلا يدفع منهم واجب التعليم إلا القادرون، وأما البنات فيتعلمن كلهن مجانا لتتكون منهن بإذن الله المرأة المسلمة المتعلمة...**". وسعى لاحقا في إرسال عشر فتيات لإكمال تعليمهن الثانوي في سوريا، كما دافع عن دخول المرأة إلى المساجد (قرة، 2018، ص 287).

وأكد الإبراهيمي بأن فضل الجمعية في تعليم البنات كبير جدا، فهي من فتح لها أبواب التعليم وفق ضوابط شرعية، وقبلها كان الجمود واقفا في سبيل المرأة ومانعا من تعليمها، فجاءت الجمعية وأذابت هذا الجمود وكسرته، وأخرجت المرأة من سجن الجهل إلى فضاء العلم في دائرة التربية الإسلامية، ورأت الجمعية أن الأمة كالطائرة لا

تطير إلا بجناحين، وجناحاها هما المرأة والرجل، فالأمة التي تخص الذكر بالتعليم تريد أن تطير بجناح واحد، فهي واقعة لا محالة، واستطاعت الجمعية أن تحقق نسبة من النجاح في هذا الأمر فالنساء أصبحن يشهدن دروسا خاصة بهن في الوعظ والإرشاد، ويفهمن ما للمرأة وما عليها، ولمس الرجال أثار تعليم المرأة على حياتهم، ومنها حسن تدبير المنزل من طرف المرأة وحسن تربية الولد، وقد ضمت مدارس جمعية العلماء نحو ثلاثة عشر ألف بنت (عام 1953م)، شاركن الأولاد في السنوات الثلاث الأولى من المرحلة الابتدائية، ثم انفردن ببرنامج محكم، وانعزلن في صفوف خاصة مع الشدة في التربية الإسلامية، والدقة في المراقبة (الإبراهيمي، آثار الإمام البشير الإبراهيمي، ج.4، 1997، ص 170).

3. تعليم المرأة في نظر الشيخ البشير الإبراهيمي وجهوده في الموضوع

1.3. نظرته لتعليم المرأة

لقد اعتبر الإبراهيمي التعليم أحد المقومات الأساسية التي تبنى عليها الأمم والأوطان، ونادي بتعليم أفراد المجتمع وساوى في ذلك بين الذكور والإناث، ووصف المدرسة بأنها جنة الدنيا والسجن هو نارها...والأمة التي لا تجتهد في بناء المدارس فحتما ستبني السجون... والحياة بلا علم متاع مستعار، والوطن بلا علم عورة مكشوفة، ونهب مقسم...وأن المدرسة هي طريق الحياة وطريق النجاة وطريق السعادة، وأن الوطن أمانة الإسلام في الأعناق، ومن بعض حقه على المسلم أن يحفظ دينه من الضياع، وأن يحفظ لسانه من الانحراف، وأن لا سبيل لكل هذا إلا ببناء المدرسة...وجعلها حصونا تقي أبناءها الانحلال الديني، والانهيار الخلقي، وتحفظهم من ترف الغنى وذل الفقر، وتربيهم على الرجولة والقوة...وتصحيح الفطرة وتقويم الألسنة، وتمتين الإرادات والعزائم، وتغرس الفضيلة في نفوسهم وتصلح ما أفسده المنزل والشارع، وتروضهم على حب الوطن وبنائه شيئا فشيئا (شفري، 2009، ص 225-226)، ويتساوى في طلب العلم الذكر والأنثى، ولم يكتف الإمام بتذكير المجتمع بأهمية تعليم المرأة بل جادل جدالا كبيرا عن حقها في التعليم، فالإسلام فرض العلم على المسلم ذكرا وأنثى (الإبراهيمي، آثار الإمام البشير الإبراهيمي، ج2، 1997، ص 21).

وتجدر الإشارة أن موقف الشيخ الإبراهيمي من تعليم المرأة ونظرته للقضية يعد جزءا من موقف الجمعية، فقد سار في إطارها العام ورأي أن مسألة تعليم المرأة مهمة جدا، وتتساوي في ذلك كل النساء في الجزائر والعالم الإسلامي، والأكيد أنه لاحظ أن أوضاع النساء في المجتمعات الإسلامية متشابهة، لذا كتب أرجوزة "**تعليم البنت**" أرسلها إلى بعض علماء نجد استنهاضا لهم على تعليم البنت، معتبرا المرأة نصف المجتمع، وإن هي بقيت على جهلها فهي في حالة شلل وتشكل خطرا على الجميع، معتبرا أن كل المجتمعات تتطور بالاعتماد على الرجل والمرأة ولم يثبت أن الدين منع تعلمها، واخترنا منها (الإبراهيمي، آثار الإمام البشير الإبراهيمي، ج.4، 1997، ص 133):

ومنعهـا مـن الكتاب والنظـر لـم تـأت فيـه آيـة ولا خـبر

والفضليات مـــن نسا صدر غبر لهـــن فـــي العـــرفان ورد وصـــدر

وانظـــر هـــداك الله ماذا ينتـظر مـــن أمـــة قـــد شل نصفها الخـــدر

وانظر فـــقد يهديـــك للخير النظر وخـــذ مـــن الدهـــر تجـــارب العبر

هل من أمة مـــن الجماهير الكـــبر فيما مـــضى مـــن القـــرون وحضر

خطّـــت من المجد ومن حسن السّير تاريخـــها إلا بـــأنثى وذكـــر؟

ومن يقـــل في علـــها غـــي وشـــر فقل لـــه هي مـــع الجـــهل أشـــر

ولا يكـــون الصفـــو إلا عن كـــدر وإن تيـــار الزّمـــان المنحـــدر

لجـــارف كـــلّ بنـــاء مشمخر فاحذر وسابق فعسى يجدي الحذر

وكان الشيخ الإبراهيمي شديد الاعتناء بمسألة تعليم المرأة الجزائرية، واعتبره من بين الأساسيات في حياتها، وفرق بين التعليم الفرنسي والتعليم العربي، معتبرا أن المرأة الجزائرية واجهت خطر عدم تعليمها، أو توجيهها إلى التعليم الفرنسي، الذي فتح أبوابه لها، ورغم ذلك كان إقبالها عليه قليل، وفي محاضرة عن المرأة ألقاها في جمعية الشبان المسلمين عام1953م أكد أن موضوع المرأة ذو شعب: جهلها، تربيتها، تعليمها، حجابها، وظيفتها في البيت، وكل هذه انشغالات يجب أن يسلط عليها الضوء، وأكد أن المرأة المسلمة في الجزائر إلى وقت قريب لا يجاوز أربعين سنة كانت محرومة من التعليم، إلا شيئا من القرآن الكريم يؤدي إلى معرفة القراءة والكتابة البسيطة، وهذا النوع البسيط من التعليم ليس متاحا لكل البنات، بل هو خاص ببعض بيوت العلم، ولا تتجاوز البنت في تعليمها هذا الثانية عشر من عمرها، وهذه هي الحالة المنتشرة في الجزائر منذ قرون، وكذلك الوضع في باقي البلدان الإسلامية مع فروق بسيطة تكاد لا تذكر، وأرجع السبب في هذه الوضعية إلى نزعة قديمة خاطئة منتشرة بين المسلمين، وهي أن تعليم البنت مفسدة لها، ويعتمد أصحاب هذه النظرية على حجج واهية ومخالفة لمقاصد الشريعة العامة، ولمنهج النبي ﷺ ومعاملته للمرأة، وهذا حسب الإبراهيمي علة العلل التي أوصلت المرأة المسلمة إلى هذه الدرجة، والتي مازالت آثارها السلبية سارية في المجتمع الإسلامي، واعتبرها لطخة عار فيه، وأكد أن المرأة إذا تعطلت عطلت الرجل، وإذا تأخرت أخرته، وحمل مسؤولية هذا الوضع لمن جعل تعليم المرأة مفسدة، فلا سبب لانحطاط المرأة في المجتمع الجزائري إلا هذا الانحراف الذي شوه الدين وقضى على المرأة بالخمول فقضت على الرجل بالفشل، وكانت نكبة على المسلمين، وما المرأة المسلمة الجزائرية إلا جزء من المجموعة الإسلامية (الإبراهيمي، آثار الإمام البشير الإبراهيمي، ج.4، 1997، ص 263-264).

وانتقد الإبراهيمي تعليم المرأة في المدارس الفرنسية وتلقينها لغة ليست لغتها، واعتبره الفجر الكاذب لأن تعليم اللغة الفرنسية يجب أن يكون بعد اللغة العربية، اللغة المتصلة بالروح والتاريخ والمقومات الأصلية فهي المكسب الحقيقي للجزائرية، وكان التعليم الفرنسي الموجه للمرأة قد انتشر في المدن الحديثة الحضارة كما وصفها

الإبراهيمي مثل: سكيكدة وسطيف وسيدي بلعباس، وهي مدن عمرت في عهد الاستعمار، وليست فيها بيوتات عريقة تمثل حضارتها الإسلامية وتحفظ تاريخها العلمي، وتوسع التعليم الفرنسي ليصل إلى المدن التاريخية ذات التقاليد الموروثة والماضي العلمي العتيد على حد تعبيره وهي: تلمسان وبجاية وقسنطينة والجزائر، وانساق أولياء الفتيات المسلمات إلى هذا التعليم الأجنبي، بعد أن كانوا معرضين عنه لعدة أسباب، من بينها أنه لم يكن يوجد حينها تعليم رسمي ولا حر باللغة العربية يسبق التعليم الفرنسي، وكانت أثار إقبال بعض الفتيات على التعليم الفرنسي سلبية، إذ أغلبهن لا تواصلن تعليمهن ويقفن عند حد الشهادة الابتدائية، وفي الغالب يقبلن على الحرف النسوية اليدوية وقليلات منهن ينتقلن إلى التعليم الثانوي، وأقل من القليل يجاوزنه إلى التعليم العالي، وقدم أسماء الجزائريات اللواتي استطعن الحصول على شهادات عالية في مجالات مختلفة وهن قليلات جدا، وأكد أن البنت الجزائرية ذكية جدا بشهادة الرجال القائمين على التعليم الفرنسي، ولكن الذي أخرها عن السبق عوامل اجتماعية، ومفاهيم مخلوطة منسوبة للدين مازالت منتشرة في المجتمع الجزائري.(الإبراهيمي، آثار الإمام البشير الإبراهيمي، ج.4، 1997، ص 264-265).

وأطلق الشيخ الإبراهيمي على التعليم الفرنسي الموجه للمرأة تسمية الفجر الكاذب وكانت نتائجه ضعيفة، ويقابله الفجر الصادق وهو التعليم العربي الإسلامي على نظم عصرية الذي بدأ مع عام 1931، أي مع جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وكان غايته إحياء العروبة والإسلام ومحاربة الاستعمار الفرنسي، وكان هدف الجمعية في خطوتها الأولى تحبيب العلم للناس بواسطة الدروس الدينية والمحاضرات الاجتماعية...ولم يسلم رجال الجمعية من محاربة الاستعمار الفرنسي لهم لكنهم صمدوا، وأسسوا المدارس العربية الحرة التي تجاوزت في البدايات مائة وخمسون(150) مدرسة عربية حرة، تحتوي على نحو خمسين ألف تلميذ من الذكور والإناث، ولهم معهد ثانوي يحتوي على ألف وخمسمائة تلميذ (الإبراهيمي، آثار الإمام البشير الإبراهيمي، ج.4، 1997، ص 265-266).

وتعليم المرأة عند الإبراهيمي واجب عليها كما هو واجب على الرجل، وبواسطة التعليم تستقيم حياتها وحياة الأسرة عموما، ومتى كانت متعلمة تمكنت من أداء واجبها الديني والاجتماعي على أكمل وجه، فالواجبات المختلفة في حياة الإنسان تحتاج للعلم، ولكن تعليمها ضبطه بضوابط شرعية بحيث لا تخرج فيه عن دينها وهويتها، وكانت هذه هي الإجابة التي قدمها للسيدة فاطمة جناح أخت المرحوم بطل الانفصال محمد على جناح، فعندما كان الشيخ في زيارة لكراتشي (1952م) مرّ على السيدة فاطمة ودار بينهما حوار عن عدة مواضيع من بينها موضوع المرأة، وسألته عن المرأة عموما وعن المرأة الجزائرية وحظها من التعليم على وجه الخصوص، فأجابها: "**إن المرأة المسلمة يجب أن تتعلم، ويجب أن تتهذب، لكن بشرط أن يكون ذلك في دائرة دينها وبأخلاق دينها، وأن الإسلام ضمن لها حقوق الإنسان كاملة، وحاطها من جميع الجهات بما يجبر ضعفها الطبيعي،...وأعطاها من الماديات والمعنويات ما لم تعطها شريعة سماوية ولا قانون وضعي، وألزمها أن تتعلم كما ألزم الرجل أن يتعلم، لأنه سوى بينهما في التكاليف، والتكاليف لا تؤدى إلا بالعلم، وأوجب عليها العشرة**

والعشرة لا تصلح إلا على العلم، وجعلها مغرسا للنسل وغارسة للخصائص فيه، ومتعهدة له بالسقي والإصلاح وكل هذا لا يتم إلا بالعلم، وإذا كانت تربية النحل والدود تفتقر إلى العلم فكيف لا تفتقر إليه تربية الإنسان؟ فإذا جهلت المرأة أتعبت الزوج، وأفسدت الأولاد وأهلكت الأمة، وكان منها ما ترين، وهل يسرك ما ترين؟ فقالت لا..." (الإبراهيمي، آثار الإمام البشير الإبراهيمي، ج.4، 1997، ص 49-50). فقد ربط الإبراهيمي تخلف المجتمعات وتخلف المرأة وفسادها بعدم تعليمها.

2.3.جهوده في الموضوع

لقد تنوعت جهود الشيخ في دعم تعليم المرأة الجزائرية، وانقسمت إلى عدة أقسام فمن جهة أرسى قاعدة أساسية في نشر تعليم المرأة الجزائرية، التي كانت حينها تعد من "**المحرمات**"، وبين مخاطر الجهل على المرأة بل على المجتمع، لأنه كان على يقين بأن المرأة عماد الأسرة وتعليمها يعني النهوض بحياتها، وهذا ينعكس على كل المجتمع بصورة ايجابية، كما تصدى لكل من اتهم منهج جمعية العلماء في تعليم البنات ورماه بالشبهات، إذ تهجم بعض أذناب الاستعمار، وبعض المغرضين ممن تصنعوا الغيرة على أعراض المسلمات وعن الحرمات الإسلامية، على منهج جمعية العلماء، واتهموه بالسوء والانحراف عن الدين، ومنهم من كان ينشر في جريدة "**إفريقيا الشمالية**"، وفي مقالة للشيخ صدرت في العدد 152 من جريدة البصائر بتاريخ 23 أفريل 1951م تحت عنوان "**أين موقع "بسكرة" من أفريقيا الشمالية؟ في كل ناد آثر من ثعلبة** "، هاجم هؤلاء الكاذبون، وبين المنهج السليم للجمعية في تعليم البنات، واستغرب من هؤلاء دعاة الفتنة كيف يتجاهلون المشاكل الحقيقية التي تتخبط فيها المرأة، ويهاجمون الجمعية تحت غطاء الدين، واعتبر أن هذه الجريدة جريدة كاذبة، وكان الأجدر أن يكتب على وجهها "**صحيفة أسبوعية لنشر الأكاذيب والدفاع عن الرذيلة، وتشجيع الدجالين ومحاربة الصدق والصادقين**"، وأضاف لمن سار في فلك هذه الجريدة مدافعا عن منهج الجمعية السليم في تعليم البنات: **ما لهؤلاء الرهط -أنصار الأعراض- يسكتون عن أعراض عشرات الآلاف من المسلمات المستخدمات عند الأجانب؟ مالهم لم تتحرك غيرتهم على عشرات الآلاف من اللواتي يملأن المواخير؟ ما لهم عميت أبصارهم وبصائرهم عن هذا السيل من التعليم الاستعماري الجارف المتوجه إلى البنت المسلمة على الخصوص، لينتزعها من الخدر، وينزع عنها لباس الفضائل الإسلامية؟ أين كانوا من أفواج البنات المسلمات اللواتي أنهكهن البؤس، ووقعن فريسة التبشير المسيحي؟** ... ويؤكد مستغربا ألم يبق معرضا للانتهاك إلا بضعة ممن يتعلمن في مدارس جمعية العلماء، فحتما هذا كذب من هؤلاء الناس، فجمعية العلماء حاربت الرذيلة ودعاة التحلل الأخلاقي جهارا نهارا... وإنها تعلم البنت المسلمة العلم والعفاف، وتربيها على الكرامة والشرف، علما أن العلم الديني هو رائد العفاف، وأن الجهل هو سبب انحدارها إلى ما ترونه وتتعامون عنه، وإن جمعية العلماء حريصة في كل وقت على شرف البنات، بل تبالغ في الاحتياط، وتسرف في التشدد، وتعاقب على الظن والتوهم، سدا لذرائع الفجور (الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج.3، 1997، ص 383-384).

كما تصدى لأولئك الذين أرادوا النهوض بحياة المرأة الجزائرية عن طريق إقحامها في القضايا السياسية كالانتخاب، وجعل حياتها مثل حياة المرأة الفرنسية والأوروبية، ورأى أن هذا يتنافى مع طبيعتها وانتمائها، واستغرب من هذه الأفكار العقيمة، وأكد لهم أن السبيل الأمثل لتحسين حياة المرأة الجزائرية هو "**تقوية عقلها بالعلم**"، والاهتمام بمأكلها ومشربها وصحتها البدنية وتوفير العناية لها ولأولادها، بعيدا عن جعلها شبيهة بالمرأة الأوروبية (الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج.3، 1997، ص 130-131).

لقد وقف الاستعمار الفرنسي وراء عدة حملات مغرضة، ولم يكن مرتاحا لتعليم أبناء وبنات الجزائر علما نافعا، فعانت عموما مدارس الجمعية من عراقيل السلطات الفرنسية، وتعرض معلموها للكثير من الأذى والملاحقات، لأنهم كانوا يقفون في وجه الفرنسة والتنصير، ومناهجهم هي مدرسة للوطنية، وصنع نساء المستقبل، فعلى يد الجمعية تلقت المرأة مختلف العلوم وتربت تربية صالحة، فحرضت فرنسا أذنابها لمهاجمة الجمعية، لكن وجدت قلم الإبراهيمي بالمرصاد، وكشف هدف تلك الحملة وحقيقة الاستعمار، الذي كان متشائما لأن الفتاة الجزائرية أقبلت على التعليم العربي الهادف، لأن نتيجته ستكون في صالح المجتمع الجزائري المسلم، وستتخرج بنت صالحة، وتصبح في المستقبل زوجة صالحة، ثم أما صالحة تدير بيتا عامرا مبنيا على الأسس والمقومات السليمة، وهذا يحمل بذرة القضاء على الاستعمار الفرنسي، وحتما الاستعمار الفرنسي يعي تماما دور المرأة وأثرها في المجتمع، فصلاحها هو صلاح المجتمع، لذلك حرّك تلك الأقلام ضد الجمعية، لزعزعة ثقة الأمة بمنهج علماء الجمعية خاصة في مسألة تعليم البنت (الإبراهيمي، آثار الإمام البشير الإبراهيمي، ج2، 1997، ص 22)، التي كانت تعتبر من التحديات الكبرى للجمعية.

ونتيجة حرص الشيخ الإبراهيمي على تعليم المرأة، خطى المشروع الإصلاحي في تعليم البنات خطوات مهمة خلال مرحلة ترأسه لجمعية العلماء المسلمين، رغم المضايقات الفرنسية له وللتعليم العربي عامة، وحرص على افتتاح مدرسة لتعليم البنات بجوار "**دار الحديث**"، هي مدرسة "**عائشة أم المؤمنين**" التي فتحت في 11 ماي 1952م، بأربعة أقسام احتوى كل قسم 45 فتاة، وأقيم حفل بالمناسبة حضرته حوالي 800 امرأة من تلمسان، وتبرعن بحليّهن للمساهمة في تسديد الديون المترتبة على المدرسة، وجمع مبلغ 750 ألف فرنك، وهو مبلغ معتبر حينها (بن علي، 2020، ص 318).

وسارع الشيخ محمد البشير الإبراهيمي عندما تبرع أحد المحسنين، بدار كبيرة لجمعية العلماء، في مدينة المدية لجعلها مدرسة خاصة بالإناث، وألزم رجال المدينة باسم العلم أن ينهضوا لبناء مدرسة للذكور، وهذا تصرف ذكي منه ومنهج عملي لتعليم البنات، لأنه لو جعلها مدرسة مختلطة لرفضت بعض العائلات إرسال بناتهن لها، ولو جعلها مدرسة للذكور وطلب بناء مدرسة للبنات لما وجد من الناس عزما في توفير مدرسة للبنات، خاصة وقد ضمنوا تعليم أبنائهم الذكور، ولقالوا في أنفسهم مادمنا ضمنا مدرسة لأبنائنا فما حاجة البنات للعلم، وأصلا ضرره أكثر من نفعه بالنسبة إليهن (أبيش، 2017، ص 134)، وهو التفكير السائد حينها.

لقد ساهم الشيخ الإبراهيمي وتحت لواء الجمعية في ازدهار تعليم المرأة الجزائرية، وتوسعت دائرة التعليم وعمت ربوع الوطن بفضل حثه على التعليم ومنهجه القويم، وسياسة الجمعية وتشجيعها لتعليم البنات، وأخذت المدارس الحرة في الانتشار، وعدد المعلمين والمتمدرسين يتزايد حيث بلغ عدد المدارس عام 1935م 70 مدرسة وعدد التلاميذ 30000 بين صبي وفتاة، وشهد عام 1943م وحده بناء 73 مدرسة، وهو العام الذي قال عنه الإبراهيمي: "**موسم حمى فائرة، أعراضها تأسيس المدارس وهذيانها الحديث عن المدارس**"، وسجل عام 1948م 130مدرسة عربية ابتدائية مجهزة بكل الوسائل العصرية، تحت إشراف عدد من المعلمين الأكفاء حوالي 250معلما، وضمت ما يقارب 30000 تلميذ من بنين وبنات تلقوا تعليما عربيا إسلاميا غايته الحفاظ على الروح الوطنية والهوية الإسلامية (شفري، 2009، ص 226-227)، ووصل عدد الإناث في مدارس الجمعية إلى 5696 بنتا عام 1951م، ليقفز إلى ثلاث عشرة ألف بنت سنة 1953م، وهو عدد ضخم بالنظر إلى الظروف السياسية والاجتماعية والنفسية والمادية حينها (الإبراهيمي، آثار الإمام البشير الإبراهيمي، ج2، 1997، ص 21).

وورد في التقرير السنوي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين لشهر أكتوبر من عام 1951 أن عدد مدارسها غير المعطلة إداريا بلغ مائة وخمسة وعشرين (125) مدرسة، يدرس فيها 36286 تلميذ وتلميذة منهم 16286 تلميذا نهاري أي الذين يدرسون نهارا، ومن هؤلاء 10590 ذكورا و5696 إناثا كما أشرنا سابقا، وحرصت الجمعية خلال العام الدراسي 1951-1952 على إرسال البنات لمواصلة الدراسة خارج الوطن في الجامعات العربية، حيث أرسلت بعثة علمية إلى كليات وثانويات مصر ضمت طالبة واحدة وخمسة وعشرين طالبا من أجل الدراسة، وتعد أول بعثة خارج المغرب العربي، وفي سنة 1955 وصل عدد بعثات الجمعية إلى معاهد عربية منها مصر وسوريا والكويت والمملكة العربية السعودية إلى مائة وتسعة (109) طالب وطالبة، وارتفع عددهم بعد اندلاع الثورة الجزائرية بسنوات قليلة إلى عدة مئات.(تركي، د.ت، ص 107-218).

خاتمة

لقد اهتم الشيخ البشير الإبراهيمي بتعليم المرأة المسلمة عموما والمرأة الجزائرية خصوصا، معتبرا أن التعليم حق من حقوقها الشرعية، ولا يوجد في الدين الإسلامي ما يثبت منعها من التعليم، بل بالتعليم تستقيم حياتها وحياة أسرتها وحياة المجتمع، ويمكن اعتبار موقفه جزءا من موقف جمعية العلماء بصورة عامة، وشكلت نظرته تجاه تعليم المرأة تحديا كبيرا في تلك الفترة حين كانت أغب العائلات تمنع البنات من التعليم، ولا نبالغ إن قلنا أن الشيخ أرسى قاعدة أساسية لإصلاح حياة المرأة الجزائرية وإبعادها عن خطر الجهل والتخلف، ومن أهم النتائج التي وقفنا عليها نذكر:

دعا الشيخ الإبراهيمي لتعليم المرأة الجزائرية، وكان أحد أقطاب جمعية العلماء الذين حملوا راية وجوب تعليم المرأة، وتخليص المجتمع الجزائري من الأفكار السلبية حول هذه المسألة.

تصدى الشيخ لكل من حاول التشكيك في منهج الجمعية بخصوص تعليم المرأة، وأكد مرارا وتكرارا على أن منهج الجمعية سليم في تعليم المرأة وتنويرها بالعلم والمعرفة الشرعية، وكسر قيود الجهل التي كبلت المرأة طويلا.

شجع الشيخ الإبراهيمي تعليم المرأة الجزائرية وفق ضوابط شرعية وحضارية نابعة من هوية الأمة الجزائرية ودينها الإسلامي، وجعل هذا النوع من التعليم في المنزلة الأولى لكي لا تضيع هوية المرأة الجزائرية، وتأتي باقي المعارف في المنزلة الثانية.

حارب الشيخ كل الأفكار السلبية المنتشرة في المجتمع حول تعليم المرأة، وآمن أن التقدم والرقي لأي مجتمع يقوم على مجهود المرأة والرجل معا، وكل تقصير في حق المرأة خاصة في قضية التعليم سيدفع ثمنه المجتمع كاملا، فهي لن تكون على قدر المسؤولية الدينية والاجتماعية الموكلة لها.

لم يدخر الشيخ جهدا بالقول والعمل في تعليم المرأة وإلحاقها بمدارس التعليم العربي، للحفاظ على هويتها وانتمائها الإسلامي، ولتقف في وجه التعليم الفرنسي الذي هدف لإبعادها عن دينها وجعلها وسيلة لهدم المجتمع الجزائري.

قائمة المصادر والمراجع:

- الإبراهيمي، محمد البشير، (1994)، **في قلب المعركة**، ط1، تصدير أبو القاسم سعد الله، الجزائر، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع.
- الإبراهيمي، محمد البشير، (1997)، **آثار الإمام البشير الإبراهيمي**، ج.5.4.3.2، ط1، جمع وتقديم نجله أحمد طالب الإبراهيمي، بيروت، دار الغرب الإسلامي.
- أبيش، سمير، (ديسمبر, 2017)، "**جهود جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في تعليم المرأة (1931-1956)**"، الساورة للدراسات الإنسانية والاجتماعية، مج3، (ع3).
- بن علي، زهير، (2020)، "**المدرسة الإصلاحية الجزائرية ودورها في تعليم البنات وإصلاح المرأة خلال النصف الأول من القرن العشرين**"، مجلة المعيار، مج24، (ع51).
- تركي، رابح، (بلا تاريخ)، **التعليم القومي والشخصية الوطنية الجزائرية 1931-1956**، ط.2، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- سعد الله، أبو القاسم، (2011)، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج.6، الجزائر، طبعة خاصة، عالم المعرفة.
- شفري، شهرة، (2009)، **الخطاب الدعوي عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين دراسة مقارنة بين عبد الحميد بن باديس ومحمد البشير الإبراهيمي**، باتنة، ماجستير قسم الدعوة، جامعة الحاج لخضر.
- عجناك، يمينة، (2011)، "**المرأة والإصلاح الديني في كتابات جمعية العلماء المسلمين الجزائريين**"، حوليات الجزائر، مج 20، (ع1).
- قرة، عائشة، (جوان, 2018)، "**دور صحافة العلماء المسلمين الجزائريين في تعزيز مكانة المرأة في المجتمع الجزائري قراءة في صحف جمعية العلماء المسلمين**"، مجلة آفاق للبحوث والدراسات، مج2، (ع2).
- معوشي، آمال، (ديسمبر, 2021)، "**مواجهة علماء الإصلاح للفكر التغريبي في الجزائر قضية السفور أنموذجا**"، مجلة البحوث التاريخية، مج5، (ع2)، جامعة محمد بوضياف، المسيلة
- ميدان، كلثوم، (2007-2008)، **مدينة الجزائر الأوضاع الاجتماعية والثقافية والسياسية 1919-1939**، الجزائر، رسالة ماجستير، قسم التاريخ، جامعة بن يوسف بن خدة.